

قراءة في قصيدة - خيول الإفرنج -

وراسة

الوجع الحضري في «نؤارة الملح»

محمد السدي



الوحدات بارزتها بشخصية قارة مثلث العمود القوي للقصيدة وقد حملت ضمير القرد الغائب المؤت هيء ما لها تنسب على ما يبدو إلى الزمن الحاضر على خلاف ما سياتي في الأجزاء الأخرى.

الجزء الثاني:

أقسامه وصفية لذا غلبت عليه الجمل الاسمية
- من احراق الكتب سواري المساجد سوداء
- خيول الاسيان تريض
- حمام جامع الزيتونة نجوم
- حالة شرفات القصر في الصيف

صدرت المجموعة الشعرية الثانية لسوف عبيد تحت عنوان «نؤارة الملح» وعمل خلاف ما جاء في «الأرض عطشى» جاءت القصائد طويلة النفس تمكن القاري من ادراك سيطرة الشاعر على لغته الشعرية وارتوائه من معين تراثي يضرب بجذوره في عمق الزمان والمكان ولعل أبرز مثال على ذلك قصيدة «خيول الافرنج» لا تحمله من نبيات ولغة شعرية متميزة ستحاول أبرز أهم معالمها.

البناء العام:

تتكون القصيدة من 14 مقطعاً تفصل عن بعضها على مساحة الورق دون أن تكون مرقمة، ويمكن حصرها في سبع وحدات تبدأ جميعها بنفس الالزمة (عندما كان عمرها ستين عدداً). الا ان هذه العبارة تتغير في آخر القصيدة ليتحول الماضي الى مضارع (عندما يكون عمرها ستين عدداً). وتتألف كل وحدة من جزئين:

الجزء الأول:

يبدأ بالالزمة المشار إليها ويقلب عليها سرد الاحداث فيجند المقطع مع الفعل الماضي الناقص «كانت» وتتعدد الافعال: «فخرج مع ايها - تدفع ... - تعود ... تعلمت ان تميم ... - تلاحق السباح ... - تعلمت ... - مشيت ... - أحسنت ... - تجلس العاطلين ... - تعرج عنهم ... - تتزوج ... - ترحب ... - تغيب ... - ترسم ... - تعود ... أحسنت ... الخ» وبالإضافة إلى هذا تتحد الأجزاء الأولى من

الحياة الثقافية 60

الحياة الثقافية
العدد رقم 59
1 أكتوبر 1990



تصفح العدد

الحياة الثقافية
العدد رقم 59
1 أكتوبر 1990



تصفح العدد

- الجوارى أحسن بالحر

- الغلام الصقل ينملل

- أبار النفط تنشمس على الرمل...

- وحدها البياق تعرف لظى الرمل ... الخ.

وأذا كان الجزء الأول من الوحدات يرتبط بالعصر الحاضر فإن الجزء الثاني يرتبط بالتاريخ ويسمى لوحات عن فترات تاريخية متنوعة زماناً ومكاناً.

مصادر القاموس الشعري:

تحدد المصادر التي اقتبس منها سوف عبيد قاموسه الشعري وتتداخل أحياناً ويمكن أن تلخصها في أربعة جداول:

1- جدول الصحراء:

يشكل في المحيط الجغرافي الذي تمت فيه حضارة العرب في بلادهم وأقرن هذا المحيط لغة متميزة بالشعور والرمال والتخيل.

- قوافل البدو شدت رحلها إلى الواحة ...

- سكت حادي البياق ...

- تحفل له الكيان ...

- ارتحل فيها الف بيت من الشعر انشدها للبياق

- وحدها البياق تعرف لظى الرمل (ص 9 - 10)

- راحت تضرب قديمها في الصحراء

- تجري مع التزلان

- تفرح لها بين الكتيان غلاك الواحة وجدول ماء

- الشمس تشرق إذ تشرق

- من بين سعف النخيل ... (ص 10 - 11)

- ترسم الشمس على جباههم بالسمرة خسرانظ

تصفح العدد (11)

2- الجدول الديني:

يستمد هذا الجدول مفرداته من التراث الإسلامي قرآناً وعبارة وحضارة تمكن في الجملة املاك الشاعر هذه اللغة وتوظيفها للتعبير عن المفهوم الحضارية المعاصرة:

- عندما كان عمرها ستين عددا ...

- من احراق الكتب سواري المساجد السوداء

- حمام جامع الزيتونة ... ينتظر آذان التجسر ... آذان

الصبح ليثبط القمع من الصومعة

- تزو إلى الملال ينبل على التلثة

- يتبين لها الحيط الأبيض من الحيط الأسود ... على

أحصرة المساجد.

- موسم الحج انقض كالعادة

- عاد الحجاج يظنون حقائبهم بالبخور مرددين

وصية حارس قبر الرسول في المنام

- وحده ابيس يحمل تبعات الذنوب ... فيرجم كل

عام بالحجارة ...

- جنات عدن

3- الجدول التاريخي:

لا تمثل القصيدة سرد المجموعة من الاحداث. التاريخية ولكن سوف عبيد يوظف التاريخ ليقتفي مع الجدول الأخرى بنحت بها قصيدته فكثير الاشارات إلى عصور غابرة واحداث تشرح الصراع الحضاري الذي عاشه المجتمع العربي الإسلامي في فترات حرجية من تاريخه:

- من احراق الكتب سواري المساجد سوداء

- خيول الاسيان تريض في صحن جامع الزيتونة

- تحمل تحت مظلة الغمام في الاسواق

الحياة الثقافية 60



- حين يطيح على كتفها البليل في قطعة النحاس
ترنو إلى الخلال

- كانت ترقص في الفتلة على ووث اليهائم
- كل الغزاة مروا...

- عيون الأوتنج
- هرمات الجيزة يظفر منها مع التاريخ عرق العبد

4 - الجدول المعاصر:

ارتبطت كل الجداول السابقة بمجموعة من المعاني
والمفاهيم المعاصرة المستمدة من مجالات متنوعة بعضها
عالمي شعبي وبعضها سياحي اقتصادي بالإضافة إلى
حقول دلالية خاصة بالمحضرة الحديثة:

- لم تحسن ربط الحذاء في بادئ الأمر
- كانت تجالس العاطلين في المقاهي
- تخرج عنهم اليهم في دخان السجائر... وأوراق
اللعب

- ثيابهم الزرقاء...
- أيار اللفظ... سائحة أمريكية
- الطريق وعرة طوبئة إلى المدرسة

- تجمعوا في سوق القومية حول سيارة الأسماء،
ساملوا السائق عن معنى مكتوبة على الأكياس والعلب
- حساب شركات الطيران سجلت ارتفاعاً هذا
العام

- عادوا إلى قواعدهم سالمين
- ترقص لهم على الزرابي في فنادق السياح
- تناولوا كل مواقع الحمل

تخصائص المكان:

تخصائص الجداول تتميز بتسطحها في الزمنان

وامتدادها في عمق حضارة تعطي حسة عشر قرناً
وتزيد، هي حضارة الشاعر تنهل من معينها فإن
للمكان هو الآخر امتداداً فسبحاً براً وبحراً فإذا كان
يقف من الجداول السابقة أنه يمتد من الجيزال إلى
جامع الزيتونة فأنه في أواخر النص يتحدد بصريح
العابرة ويعطي كل المساحة التي تطلق من مسلاسل
الإطلس، لتصل إلى «الخليج» مروراً بالبحر المتوسط»
و «هرمات الجيزة» والبحر الأحمر وجنات عدن
(ص15)

المتزاج الجداول:

لم تكن الجداول الشعرية منفصلة ومبرمة ومقسمة
على النحو الذي ذكرناه بل جاء جزء كبير منها
متداخلاً متزجاً بعضه ببعض ليولد علاقات جديدة
وصوراً شعرية غير مألوفة فكيفنا الرمال تحولت إلى
سائحة أمريكية ارتجل فيها الحادي ألتية وصرار الشعر
والحذاء ديكورا تراثياً يستمع به السواح.

- فسكت حادي البياق
- تمثل له الكتيان سائحة أمريكية
- ارتجل فيها الق بيت من الشعر (ص10)

ويتخطط قاموس الحج بالقاموس التجاري للشركات
وبالضطلحات العسكرية والفضال وتبع من الكل
صورة مشوهة للحج والمقاومة فألاول صرار عملية
تجارة أما الثاني فانه امن وسلامة واستمتاع:

- موسم الحج القصى كالعادة على احسن ما يرام
- حسابات شركات الطيران سجلت ارتفاعاً هذا
العام

- عاد الحجاج إلى قواعدهم سالمين يظنون حفاتيهم
بالبحر واللوبان (ص 13)

ويتخطط اللامني بالحاضر فنرى المرأة البياق



صعدت كل الغزاة تتحول إلى واقصة في الفنادق ويعود
الغزاة من جديد باسم السياحة:

- كل الغزاة مروا من مضيق نهديا
وكان أن راوحا

لم تكن تدرى أنهم ليعودوا
ترقص لهم على الزرابي
في فنادق السياح (ص 14)

ويتعمق الجرح ويتعظم الوجع والشاعر يرى عصر
السيارات والديابات عيون الأوتنج على الرمال ترتوي
من أيارها ونجازيا بأسلحة جديدة تضع حدا للحياة
وتغشي على الأبطال من قبل أن يتلقوا في الأرحام
- عيون الأوتنج تهورى الترحلق على الرمال
ترتوي من أيارها في الصيف

وتناولوا كل مواقع الحمل (ص 14)

ومن قامة هذه الأرواح والمعاناة يطلع من القصبدة
امل مشر بمرحلة جديدة تتحول فيها جنات عدن
إلى واقع في الصحراء لكن هذه الجنات لا تتزلف إلى
المتيقن بل ترتوي بمياه السدود التي تنهبها السواعد
وإرادة الأسمان:

- جنات عدن تصير اخضرارا على الصحاري
تسقيها مياه السدود (ص 15)

الفتنة

تمثل الفتنة العمود الفقري للقصبدة ولم يكن
مصدرها الواقع الاجتماعي المعاصر فحسب بل أنها
تضرب بجذورها في زمن مسبق إلى درجة أن سوف
عيد لم يأخذ من التاريخ إلا ما كان مرجعا.

الماضي

يميلنا المنران على سجل عسكري ودلالات تاريخية
سعدت النكسة حين كانت عيون الأسيان ترتوي في

صحن جامع الزيتونة فهذا الجامع الذي يعشل مشارة
اسلامية ورمزا له مكانته وقناسته يتحول إلى مريض
لجيوب الأوتنج ويخضع للإرادة مع سلطة اجنبية.

أما على الصعيد الفكري فالسواد يطلع من التراث
المهدور والأشاح الفكري الذي تم أعماله: من
أحراق الكتب سوري المساجد سواده

ويتنازع الجانب الاجتماعي في لوحة اللامني الظهارة
مقابلان أولها حياة الخاصة في التصور وهي حياة
ترف وبذخ وشذوة:

فحالة شرفات القصر في الصيف يبروح عليها
التسيم البحري

الجوازي احسن الليلة بالفر
نزلن عاريات إلى البحر
يتلاجن تحت القمر

والغلام الصقلي يتعلم
تحت كرش سيدة (ص 8)

أما حياة العامة فهي البداوة وعيش الصحراء وكان
المتجمع الإسلامي لم يعرف حضارة ولم يشهد تطوراً
علمياً وحضارياً:

- فواقف اليدو تشد رحالها إلى الواحة
سكت حادي البياق (ص 9)

الحاضر

إذا كان الماضي موحجا بهزئته العسكرية وفساده
الاجتماعي والسياسي فان الحاضر أكثر ايلاماً. أنه
يتسزل في واقع شعبي يعساني من شصف العيش
فالشخصية المحروية فتاة صغيرة من وسط فقير تكبح
لكسب قوت اليوم:

- كانت
تخرج مع أيتها كل صباح إلى الأسواق



تصفح العدد

قيام الساعة، ويكون التطهير من الأثم عن طريق
رجم الشيطان:

وحده ألبس يحمل ثياب التوب
فيرجم في كل عام
بالخجارة (ص 13)

ولا نشأ الحياة الاقتصادية عن هذه اللوحة الفاتحة
فالاقتصاد يعتمد بدرجة كبرى على السياحة.

- تمثل له الكيان ساححة أمريكية
- تعلمت أن تهم تلاحق السياح

- ترقص لهم على الزرابي في فنادق السياح
ويأتي الانتاج الفساحي من الخارج في شكل
اعانات أمريكية:

- تجمعوا في سوق القرية.

حول سيارة الاعانة

وساطوا السائق عن معنى

مكتوبة على الاكياس والعلب (ص 14)

ومن كل هذا ينتج الشاعر ان جيول الافرنج
التي تصورها رحلت، جاءت من جديد وإذا الحضور
الاجنبي يأخذ شكلا آخر

- كل الغزاة مروا من مضيق نهديا

وكان ان واحوا

لم تكن تدرى اهم ليودوا

وترقص لهم على الزرابي في فنادق السياح (ص 11)

والحرب التي كانت قدنا تحصد الرؤوس بالسيف
استبدلت اسلحتها بمواعج الحل:

- جيول الافرنج نهوى التحلق على الرمال

ترتوي من أبرها في الصيف

تترغ على دفنها في الشتاء

تدفع معه العربة
- تهم في الأسواق حافية
تلاحق السياح

فهي فاة لا تحسن ربط الخذاء ونجاس الماعلين في
المقاهي ويمتزج هذا المحيط البائس بالبلذلة الزرقاء
والبطانة.

وإذا كان الواقع السياسي في الماضي هو الغياب
والابتعاد عن قضايا العامة والروضخ لارادة الافرنج
فانه في الحاضر القصيد يتميز بمقاومة الوعي مسرورا
بالكبت الذي يصل الى حد التعم والاضطهاد.

- عندما كان عمرها سنين عددا

كانت تنفق مع الناس في البطحاء...

العسكر يركز رجلا من رجله...

وعلى صفرها صبرت على جلده

تصبرت الى ان قطعوا لسانه

بانبه... رجله... رأسه

سأملت الناس

قيل لها... بلغمس... في الأذن

عرفت من وقتها حمرة الدماء... (ص 9).

وإذا كان الفكر قد حرق قلبها فانه يعاد بناؤه
بالعانة الوبية:

وأحذية التلاميذ سلخنها وعرة الوديان

الطريق وعرة طويلة الى المدرسة (ص 11)

وغير بعيد عن الفكر فان الحياة الدينية في نظره
الشاعر تغلب عليها النزعة المادية فيقول موسم الحج
الى سوق تسجل من خلاله شركات الطيران ارباحا
ويقلل الحجاج حفاتهم بالبخور واللوان اما الجانب
الروحي فيتلخص في تزييد وصية حارس قبر الرسول

الداعية الى الزهد في الدنيا والنهية الى قرب



تصفح العدد

- في الأسواق في زحامها مع الناس
وحينا يطبخ على قضبان الليل
في قلعة التحلص

ترتو لن الملال يبيل على اللثانة

يجو عليها كما ينحي على جفنها للناس

- مرددين وصية حارس قبر الرسول في المنام

وحده ألبس يحمل ثياب التوب

فيرجم في كل عام.

بالخجارة

ولعل هذا الحرص على عدم اهمال الفنانة بصوره
تردنا بين الرقص والحضور لقواعد الشعر وهو جزء
من التمزق للسائد في القصيدة كلها والذي قد يعنى
الحيرة ويعمل كلى المدلالات التاريخية والجغرافية
والدينية تنزل الشاعر بصفة واعية او غير واعية في
عقده الحضاري فمعاق موممه ويحس بالوجه بصاعد
الها مع كل اشارة منها كان مصدرها.

الاسملى: لم تكن القصيدة حلقة مفرقة تدور حول
نفسها بل نجدها بعد فترة من الدوران تتفتح ويصبح
القاضي مضارعا يشر بالمستقبل والتجاوز وتنطق
المسجول والمجزات: «عندما يكون عمرها سنين
عددا

تعلم للشي على الماء

تكرت قدمها على الخذاء

تسنع خطواتها على الجسر»

وتحان كل ذلك الا يخال في التساير القديم
والحديث عملية نقد ذاتية مهدت هذه الاطلاقة التي
تمهدها فترة زمنية بقيت مهمة عندما يكون عمرها
سنين عددا.

ولعلها فترة النضج والاكتمال على كل المستويات.
ويتم القصيد بالاشراف وبكل ما يلاوم السلبات

تعب عن عيونها الشمس بالغربال،
وتأولها كل مواقع الحل (ص 14).

وقد لا يكون الوجود نتاجا عن انتقاء الشاعر الصور
القائمة وجعلها بل هو كامن في سلسلة من التشابكات
ترجم تحرقا بين لقطتين في كل مرة.

فيمن الماضي (كانت) والحاضر (تكون) وبين القديم
والحديث وبين الشرق والغرب وبين الدين والدنيا
يتراجع الشاعر وتتازعه اكثر من قوة فيتمسك هذا
القلق على المستوى اللغوي في استعمال سوف عبيد
لاكثر من جدول لغوي. فحينما نجد لغة فصيحة
تستمد قاموسها من لغة القرآن والقداس.

«سنين عددا - حادي الياتي - لظن الرمل - الكتيان
- ظلال الواحة - الخيط الابيض من الخيط الاسود...»

وحينا اخبر نراه بلجبا الى تعابير عامية او هي
فصيحة وشاع استعمالها فصارت مع الأيام عامية او
تكاد.

«- يبروح عليها التسييم البحري

- للعسكر يركز رجلا من رجله

- يطبخ الليل

- احمر المساجد

- عفسوا عليهم في الزحام

- يلقون حفاتهم بالبخور واللوان

- ترقص في الفشة على روث البهائم

وإذا تميز شعر سوف عبيد عامة بالخروج على محور
الحليل وقواعد الشعر القديم فانه بدأ حريصا في بعض
المواضع على احترام القافية.

- الجوازي احسن اللية بالحر

نزلن عاربات الى البحر

تلاعن: تحب القمر



تصفح العدد

السابقة ويفهرها انه التقدم والسعي الجماعي نحو الشمس.
- تتعلم التي
تكرر قدماء على الخفاء
تنسح خطراتها على الجسر
تعبر الجسر مع العابرين

عيونها... عيونهم... في الشمس (ص 15 - 16)
وما الشمس بالواقع الغريب... انها تضرب
بجذورها في المناخ العربي منذ القدم وهي منا الينا
حاضرة في تراثنا وبلادنا وعلى وجوهنا فيهل السيرة
نحو الشمس مجاوز للوجع وسعي الى منابع الانواق
فينا.